العرب
الثلاثاء 2020/04/14
السنة 42 العدد 11677

دون كيخوته أفضل من كافة الفلاسفة «المتحذلقين»

الفلسفة الحقيقية هي تلك التي تعلم الإنسان كيف يعيش

لا غنىً عن الفلسفة في الحياة المعاصرة، رغم تراجع دورها وابتعادها عن الهواجس اليومية لتصبح في أغلبها حذلقات فكرية بعيدة عن الواقع، وقليلون هم المفكرون الذين التحموا بقضايا الإنسان المعاصر. الفلسفة هي ما ينير الطريق الغامض اليوم ولكن كيف؟ عن هذا السؤال نجد الإجابة في كتاب "الإدراك التراجيدي للحياة" للإسباني ميغال دو أونامونو.

حسونة المصباحي
كاتب تونسي

تونس - هناك كتب أقرأها غير أني لا أنتبه إلى قيمتها، وإلى أهميتها الحقيقية إلاّ بتأثير من حادثة شخصية، أو محلية، أو عالمية. وقد أعادتني كارثة وباء الكورونا إلى البعض من هذه الكتب. وكتاب "الإدراك التراجيدي للحياة" للإسباني ميغال دو أونامونو واحد من هذه الكتب.

في فجر أحد هذه الأيام، شرعت في قراءته بتأنٍ لأجد فيه منذ فصوله الأولى ما يستجيب مع هواجسي، وشكوكي، وأفكاري، وخواطري في هذه الأيام العصيبة.

حذلقة الفلاسفة

كان ميغال دو أونامونو قد ساند في البداية الجنرال فرانكو، إلا أنه ارتدّ عن موقفه هذا بعد مقتل فريديركو غارسيا لوركا، ولم يتردد في توجيه نقد لاذع للجنرال ميان أستراي، قائد الكتيبة العسكرية قائلا له "أنْ تنتصر على عدوك لا يعني أنه اقتنع بفكرتك". فرد عليه الجنرال بحدة "فليمت الذكاء وليحيا الموت".

> كل فيلسوف هو إنسان من لحم ودم يعتمد العقل والإرادة ويخاطب أناسا آخرين من لحم ودم أيضا

وفي حفل أقيم بجامعة سالامنكا التي كان عميدا لها، كاد أنصار الجنرال ميان أستراي أن يسحلوا ميغال دو أونامونو إلا أن زوجة فرانكو تمكّنت من انتشاله منهم لتعيده إلى بيته. إثر تلك الحادثة، أقيل من منصبه ليموت معزولا أواخر عام 1936 عن سن تناهز 72 عاما.

في الفصل الأول من "الإدراك التراجيدي للحياة"، يشير ميغال دو أونامونو إلى أن الفيلسوف الحقيقي هو ذلك الذي يكون إنسانا قبل كل شيء. لذا هو يرى أن ديكارت كان مخطئا عندما قال "أنا أفكر إذن أنا موجود"، لأنه كان يتوجب عليه أن يقول "أنا موجود لأني أفكر" لأن الإنسان من لحم ودم، ولا يمكن أن يكون مجموعة من الأفكار المجردة.

ويضيف ميغال دو أونامونو قائلا "إذا لم يكن الفيلسوف إنسانا، فإنه يمكن أن يكون كل ما نحن نبتغي ونريد إلا أن يكون فيلسوفا. ومعنىً هذا أنه مُتحذلق، ومدّعي معرفة، أي أنه نسخة وليس الأصل".

وماضيا في نفس السياق، يقول ميغال دو أونامونو بأن الفلسفة إنتاج إنساني لكل فيلسوف من الفلاسفة، كل فيلسوف هو إنسان من لحم ودم يعتمد العقل والإرادة ويخاطب أناسا آخرين من لحم ودم أيضا. وهو يتفلسف ليس اعتمادا على العقل وحده، بل اعتمادا أيضا على الإرادة، وعلى الشعور، وعلى اللحم والدم، وعلى الروح وعلى الجسد كله، "إنه الإنسان الذي يتفلسف".

لذلك يعتقد ميغال دو أونامونو أن العيب الكبير في "خطاب الطريقة" ليس الشك الأوّلي والمنهجي، وليس لأن ديكارت أراد منذ البداية أن يشكك في كل شيء من خلال حيلة، بل لأنه يرغب في أن يكفّ أن يكون نفسه، أي ديكارت الرجل الواقعي، من لحم ودم، والذي لا يريد أن يموت، لكي يكون "مفكرا خالصا، ومفهوما تجريديا".

وبحسب دو أونامونو فإن ديكارت لا يصبح فيلسوفا حقيقيا إلاّ عندما يقول في "خطاب الطريقة" بأن أفضل ما يتقاسمه البشر جميعا هي رجاحة العقل"، ثم يواصل بعد ذلك الحديث عن نفسه كإنسان من لحم ودم قائلا إن "الفصاحة تفتنه"، وإنه "يعشق الشعر"، وإنه "يميل إلى الرياضيات، ويمارسها". ويرى ميغال دو أونامونو أن الفلسفة الحقيقية هي تلك التي تعلّم الإنسان كيف يعيش، وكيف يُدبّرُ شؤون حياته. من ذلك مثلا أن سقراط كان على علاقة وطيدة بغانية مشهورة في أثينا. وكان يمر على بيتها بين وقت وآخر ليعطيها نصائح ودروسا في فن العشق. ويوما ما طلبت منه أن يصبح مساعدا لها لـ"صيد" المزيد من العشاق.

دون كيخوته

رادا على الذين يسخرون من إسبانيا لأنها لم تنجب فلاسفة كبارا مثل فرنسا وبريطانيا وألمانيا، ختم ميغال دو أونامونو كتابه "الإدراك التراجيدي للحياة" بفصل يمجد فيه دون كيخوته، بطل رواية سارفانتس الشهيرة قائلا إنه-أي دون كيخوته "أفضل من كل الفلاسفة المتحذلقين، الذين يطلقون الأفكار والمقولات الغامضة والمبهمة لكي يُشعروا الناس بأنهم من جنس خاص"، وأنهم كاشفون لعوالم وأسرار ليس بمقدور الآخرين معرفتها والاطلاع عليها.

وقد يكون دون كيخوته غبيا وساذجا، لكنّ غباءه وسذاجته أفضل وأرحم من ذكاء واحد مثل الايطالي ماكيافيلي الذي ترتكز فلسفته السياسية على العنف، والمؤامرة، ومن عبقرية علماء يزعمون أنهم يعملون من أجل تحقيق التقدّم للإنسانية جمعاء، لكن قد تفضي بحوثهم وأعمالهم إلى كوارث مدمّرة وقاتلة مثلما حدث مع القنبلة الذرية التي ضربت هيروشيما وناغازاكي في نهاية الحرب الكونية الثانية، أو مثل بقية أسلحة الدمار الشامل التي تتنافس الدول الكبيرة والصغيرة لامتلاكها من أجل المزيد من الحروب والنزعات الضارّة بالإنسان وبالطبيعة.

وقد يكون دون كيخوته "غبيا وساذجا" حقا، لكن حياته، وأوهامه، وأحلامه وهو يجوب سهول إسبانيا على ظهر حصان عجوز تعكس بحسب ميغال دو أونامونو "الإدراك التراجيدي للحياة في مفهومه العميق". لذلك هو "أهمّ وأفضل من مئات النظريات الفلسفية والعلمية". ولأنه لم يطلب من العلماء "أصحاب العقول الكبيرة" كما يسميهم البعض، فإن دون كيخوته كان "يتقبّل الحياة والحقيقة كما هما". كما أنه كان "يثق في المشاعر والأحاسيس أكثر ممّا يثق في العقل التجريدي". ولكن أي مهمة لدون كيخوته في عالم اليوم؟

أي مهمة لدون كيخوته في عالم اليوم؟

عن هذا السؤال يجيب ميغال دو أونامونو قائلا إن مهمته هي أن يصرخ، ويصرخ حتى ولو تردد صدى صرخاته في صحراء مترامية الأطراف... نعم... عليه أن يواصل الصراخ لأن "الصحراء قد تسمع، أما البشر فهم مصابون بصمم لا يشفون منه". لكن ربما يأتي يوم تتحوّل فيها صرخات دون كيخوته إلى غابة من الصرخات تولد في قلب الصحراء شجرة هائلة من أغصانها تنبعث آلاف اللغات لـ"تغني نشيد الحياة والموت".

منصة المسرح الجزائري الافتراضية تناقش إشكالية الحداثة

أغلقت أزمة انتشار فايروس كورونا المستجد المسارح وفضاءات النقاش حوله، لذا جاءت الفضاءات الرقمية كبدائل لتداول الأعمال المسرحية أو النقاشات حولها، وهذه الحلقات عرفت إقبالا هاما من الفاعلين المسرحيين ومن المتابعين، وهو ما تؤكده الحلقات التي يقدّمها منتدى المسرح الوطني الجزائري.

الجزائر – ناقش جمهور الفن الرابع، في عدد جديد من منتدى المسرح الوطني، محيي الدين بشطارزي، مسألة الحداثة المسرحية، عبر مجموعة من الأسئلة التي طرحت من خلال المنصة التفاعلية، على الدكتور مصطفى رمضاني، أستاذ النقد المسرحي بجامعة محمد الأول بوجدة المغربية.

بدأ رمضاني مداخلته بأسئلة حول ماهية الموقف الحداثي، ووجود وصفة جاهزة للعرض المسرحي الحداثي، يمكن تطبيقها، ومدى ارتباط الحداثة بالمضامين والأشكال، قبل أن يجيب بأن المضامين عبارة عن نصوص مطروحة في الطريق، وهي معطى متداول ومتغيّر يأخذ بعده الخاص، انطلاقا من الأدوات التي يوظفها المبدع.

وهذه الأدوات بحسب رمضاني، هي التي تشكّل صيغة الإبداع. فإذا ما توافرت لها شروط التفرّد والأصالة والمغايرة واختراق الممكن والانفصام عن النمطية، فإنها ستدخل باب الحداثة من الباب الواسع. وهذا يفيد من جهة أنه لا مجال لطرح مسألة علاقة الشكل بالمضمون في الخطابات الحداثية، لأن الأساس هو ضرورة ربط آليات الإبداع بالمجتمع استنادا إلى قاعدة التأثر والتأثير، مع التأكيد المسبق على جعل "أنا المبدع" هي المحرّك الأساسي والمشكل الأول لتلك الآليات حتى تحقق صفة الخصوصية والتميّز.

وانطلاقا من ذلك، رأى رمضاني أن الحداثة المسرحية "ليست حداثة مضامين أو أشكال، بقدر ما هي حداثة رؤية للعالم بالمعنى الذي يحدده غولدمان". وهي التي تراعي ما نسمّيه "فرادة التصوّر" ضمن بنيته الكلية الداخلية متناغمة العناصر. فكما أن المضامين لا تحدد سلفا لتكون تقليدية أو حديثة، فكذلك الأشكال، وإلا فما المعيار الذي نستند إليه في هذه الأحكام، إذ أن كل حكم يبقى موقفا ذاتيا تتحكم فيه مجموعة من الأسباب أو المواقف الخاصة خارج سياق العمل المسرحي.

وأضاف رمضاني قوله إن الحداثة إذا كانت دعوة إلى رفض النمطية والنموذج، فكيف نفسر هذه المواقف التي تعدّ الحداثة حداثة أشكال، وما هو الشكل خارج سياق معيّن ومضمون معيّن كذلك، وهل الأشكال سوى إطار لمضامين تعطيها صبغتها الشكلية داخل سياق ما، وما الخطاب إلا ذلك التوحّد البنيوي بينهما حتى لا نكاد نفرّق بين قوة تأثير كل منهما، وأيّهما الفاعل والمؤثر في الآخر؟

علاقة الشكل بالمضمون، بحسب رمضاني، لم تعُد قضية خطاب الحداثة بالأساس، لأن ما يميّز كل خطاب إبداعي أو نقدي، هو أصالة وجهة نظر صاحبها وتميّز أسلوبه؛ و"الأسلوب هو الرجل نفسه"، به نتعرّف على شخصية الكاتب ونميّزه عن غيره، ونكتشف حداثته من عدمها.

وتابع رمضاني قوله "هذه المسألة أحد الموضوعات النقدية التي باشرها نقدنا العربي منذ مراحله التأسيسية، وقد أفاض فيه القول أغلب نقادنا القدامى، من أمثال الجاحظ وابن قتيبة والجرجاني والحاتمي وغيرهم ممن اعتبروا بناء العمل في صيغته الكلية ورؤية الكاتب، هو ما يستند إليه في مثل هذه الأمور التي تندرج أساسا في ما نسمّيه "شعرية العمل الفني".

> الحداثة المسرحية ليست حداثة مضامين أو أشكال، بقدر ما هي حداثة رؤية للعالم كما يحددها غولدمان

وهو ما أكده، كما يقول، النقاد المحدثون في الشرق والغرب، وعلى رأسهم شيخ البنيوية فرديناند دو سوسور حينما صرّح بأن الموضوع ليس هو من يخلق النص، ولكن وجهة النظر هي التي تخلقه.

وختم مصطفى رمضاني حديثه بقوله "اليوم ونحن ننظر إلى العمل المسرحي، ينبغي البحث عن مظاهر التفرّد فيه وعبقرية الابتداع والإضافة، لأن ذلك هو السبيل إلى خلخلة الثابت والنمطي والمبتذل. وهذا أمر لا يتأتى إلا بالاجتهاد والموهبة. وهما مدخل أساسي لتحقيق شعرية الكتابة. وحين تتحقق تلك الشعرية، يمكن الحديث من ثمّ عن الحداثة".

الحداثة في المسرح ليست فقط شكلا

«تشكيل» يطلق حوارات افتراضية بين الفنانين

دبي – يجمع "تشكيل"، مركز الفن والتصميم الذي يتخذ من دبي مقرًا له، الفنانين والمصمّمين على منصّات افتراضية لإجراء حوارات تتمركز حول التقنيات والممارسات المهنية وتلك التي تحفّز مهارات الشباب في عالم التصميم والفنون، لإيجاد مصادر الإلهام أثناء العمل في المنزل خلال الظروف الراهنة، وذلك بعد أن أضحى الأفراد أكثر ترابطا وصِلة ببعضهم البعض عبر منصات التواصل الاجتماعي واللقاءات عبر الإنترنت في ظلّ ممارستهم التباعد الجسدي في جميع أنحاء العالم.

وتقام حوارات "تشكيل" ضمن جلسات مدتها 20 دقيقة، تُعرض كل يوم أربعاء على صفحة المركز على إنستغرام وعلى صفحتي الفيسبوك ويوتيوب الخاصتين به، حيث يمكن للمتابعين عرض هذه الحوارات المسجّلة ومشاركة الآخرين بها وطرح الأسئلة في التعليقات للحصول على تجربة تفاعلية ممتعة.

ويقدم المركز غدا الـ15 من أبريل حوارا بين المستشارة النفسية ريما بني عباسي والفنان فيصل الملك يدور حول طرق التعامل مع العزل الذاتي في المنزل، بما في ذلك علاج قائم على السردية يهدف إلى تحليل المشكلة من أجل فهمها من مسافة بعيدة، وبناء قصة ذات أبعاد أكثر ثراء، الأمر الذي قد يساعد في إيجاد فسحة أوسع للأمل من خلال إتاحة المجال لإمكانية التعامل مع التحديات بطريقة مختلفة.

أما الأربعاء 22 أبريل فيخصّصه "تشكيل" للحديث عن التحدّيات والفرص التي يواجهها المجتمع الإبداعي هنا في دولة الإمارات.

بينما تبدأ حلقة الأربعاء 29 أبريل بمقاربة هذه الفترة الاستثنائية التي تمنح المهنيين المبدعين من الفنانين والمصمّمين فرصة فريدة للتفكير في ممارستهم الإبداعية. وانطلاقا من سؤال ماذا تفعل للاستفادة القصوى من هذا الوقت للتأمل؟ سيناقش المشاركون الطرق التي يتبعونها للوصول إلى مسارات جديدة وروايات ونهج جديد.

> «تشكيل» يقدم حوارات ضمن جلسات بين فنانين وهواة تناقش أهم القضايا الفنية على شبكة الإنترنت

وتخصّص حلقة الأربعاء 6 مايو لكشف الطرق التي يمكن للأسر من خلالها القيام بأنشطة فنية باستخدام ما هو متاح لها من مواد. وسوف يتبادل أعضاء مركز "تشكيل" وموظفوه النصائح والأفكار لمساعدة الأطفال على البقاء نشطين ومشاركين ومساعدة الأسر على التخلص من الملل.